



من تاريخ الحياة العلمية في جبل عامل

محمد جابر آل صفا العاملي

الحياة العلمية في دورها الأخير - أثر المدرسة الحميدية في جبل عامل

قضى مؤسس المدرسة الحميدية العلامة السيد حسن يوسف الحسيني نحبه سنة ١٣٢٤-١٩٠٦ فأغلقت أبوابها وانصرف طلابها وكانت آخر مدرسة دينية على النهج القديم في جبل عامل.

وهجرت المدرسة فأسرع إليها الخراب وتساقطت سقوفها وجدرانها فأصبحت أثراً بعد عين بعد أن كانت دار علم وفضل وروضة وثقافة وتهذيب ست عشرة سنة وبقيت خراباً يباباً ما يقرب من عشرين عاماً حتى نهض الزعيم الأريحي يوسف بك الزين فجدد بنيانها بمساعدة أخيه الفاضل الحاج حسين الزين في سنة ١٣٤٢-١٩٢٣ وحول الغرف الجنوبية إلى أقبية متينة البناء وأصلح الغرف الشرقية وجلب إليها الماء في حوض كبير فأنفق على هذا المشروع نحو ألف ليرة ذهبية فيما نقل لنا واستلمت إدارتها جمعية المقاصد الخيرية فأتمت ترميم الغرف الشمالية وأنشأت في ساحتها حديقة صغيرة وبلغ مجموع ما أنفقته على الترميم ثلاثمائة ليرة سورية واتخذت فيها مدرسة لتعليم الناشئة على طرز المدارس النظامية وهي تضم مائة وسبعين تلميذاً وفيها أربعة أساتذة.

أما الفوائد العلمية الثقافية والمنزلية الأدبية والمعنوية التي أحرزها أبناء الشيعة في جبل عامل وغيره من المدرسة الحميدية فهي جزيلة وفيرة فقد نبغ فيها الشاعر والأديب والمترسل والخطيب وارتفع مستوى البلاد الأدبي وارتقت منزلتها الاجتماعية وأخرجت عدداً ليس بقليل من العلماء الأفاضل والشعراء والأفذاذ والأدباء والكتبة المجيدين.

فمنهم من انتخب للانتظام في سلك المجمع العلمي العربي في دمشق الفيحاء وكان من أعضائه اللامعين ومنهم المؤلفون في متن اللغة والمؤرخون^(١) ومحررو الصحف والمجلات ومن تولى القضاء ومناصب الافتاء^(٢).

(١) منهم علامتان الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والأول اختير لعضوية المجمع في سنة تأسيسه ١٣٣٨-١٩٢٠ وله في مجلته أبحاث جليلة وهو مؤلف قاموس المختصر الجامع في اللغة أخذ بتأليفه بطلب هيئة المجمع في دمشق وله رسالة الخط والدروس الفقهية وهداية المتعلمين لطلبة المدارس (مطبوعة) وله كتاب في فروق اللغة أسماء (الوافي بالكفاية والعمدة وهو كتاب نفيس جيد الترتيب (لم يطبع) ورسالة مخطوطة في ما بين أهل السنة والشيعة من الاختلاف=

واشهر تلامذتها الذين اتموا علومهم في جامعة النجف الأشرف عدا من تقدم ذكرهم العلماء الأفاضل الشيخ رشيد قاسم قعون (زبدین) المتوفى في سنة ١٣١٧-١٨٩٩ والشيخ حسين حسن نعمه والشيخ محمد حسين شعيثاني (انصار) والشيخ محمد علي نعمه (حبوش) والشيخ علي حلاوة (القاقعيه) والشيخ محمد علي المقدادي (فرون) والذين لم يهاجروا إلى النجف عدا من سبق ذكره الشيخ احمد عبد المطلب مروه (الزرايه) والشيخ حسن حوماني (حاروف) والشيخ محمد مصطفى عاصي (انصار) والشيخ صلاح الدين سلامه (النبطية) والسيد علي جواد فحص (جبشيت) وهؤلاء توفوا خلال الحرب العظمى والشيخ ابراهيم محمد حمام «جبشيت» المتوفى في سنة ١٣٣٤-١٩١٥ والسيد هاشم عباس المتوفى في سنة ١٣٣٥-١٩١٦ والشيخ نصر الله حمادي (الكوثريه) المتوفى في سنة ١٣٣٦-١٩١٧ والسيد خليل هاشم (نصار) والشيخ محمود فخزي (الزرايه) والشيخ عبد الرضا شعيثاني (انصار) والشيخ صفى الدين سلامه (النبطية) والشيخ حسين محمد صفا (الكفور) والشيخ عبد الله حسن صف (زبدین) والشيخ عبد الله علي صفا

=في الاصول والفروع منها نسخة في مكتبة الأستاذ محمد كرد علي وهي أحد مصادر كتابه خطط الشام وعشرات من المقالات نشرت في العرفان والمقتبس وغيرها من الصحف والمجلات. والثاني اختير لعضوية المجمع في سنة ١٣٤٦-١٩٢٧ وله في مجلته مقالات رائعة وهو مؤلف كتاب الذخيرة في سيرة الأئمة الاطهار عليهم افضل الصلاة والسلام اجاد فيه كل الاجادة نظما ونثرا (مطبوع) ولا غرو فالشيخ من فحول شعراء العروبة وله عدة رسائل نشر بعضها في العرفان منها رسالة في قلعة الشقيف ورسالة في معجم قرى جبل عامل ورسالة في سيرة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام ورسائل تاريخية لم تطبع وعدة مقالات وابحاث قيمة نشرت في الصحف والمجلات. ولكاتب هذه السطور كتاب الشذرات في الفلسفة والطبيعات ضم اشهر الآراء العلمية والابحاث الكونية مع بعض الحواشي والتعليقات وله تاريخ جبل عامل الذي نشرت بعض فصوله في العرفان والكناش في الادب والقريض في خمسة اجزاء والمذكرات في التاريخ والاجتماع ولادب في ستة اجزاء ومختارات في الشعر القديم والحديث في خمسة اجزاء. ومنهم العلامة الفاضل الشيخ احمد عارف الزين مؤسس جريدة جبل عامل المحتجة ومشئ مجلة العرفان التي خدمت الثقافة العربية وابناء الشيعة الامامية اجل خدمة وكانت إحدى مقومات النهضة العلمية في جبل عامل وميدانا لمباراة كتاب العربية وبخاصة ادباء الشيعة منهم واطهار مواهبهم وله من التأليف تاريخ صيدا ومختصر تاريخ الشيعة ورسالة عنوانها حقائق ودقائق وقد نشر عدة رسائل وعلق عليها الحواشي منها كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وديوان السيد جعفر الحلي وهو أحد جامعي ذلك السفر الادبي النفيس المعروف بالعراقيات والعاملات عدا عشرات المقالات نشرت في العرفان الزاهرة التي اخرجت إلى اليوم سبعة وعشرين مجلدا هي دائرة علم وادب ومعلمة تاريخ وفلسفة واجتماع.

(٢) ومنهم الكاتب الاجتماعي والشاعر الفذ والأديب الغزير المادة الأستاذ محمد علي الحوماني منشئ العروبة ومؤلف كتاب الأمل وناظم ديوان السائس والمسوس وغيره من الكتب والابحاث القيمة الرائعة ومنهم العالم الفاضل الكاتب الاديب الشيخ حسين مروه الطالب في جامعة النجف الاشرف واستاذ اللغة العربية في إحدى مدارس العراق الكبرى وهو والحوماني من خريجي مدرسة النبطية في عهدها الثاني. ومن تلاميذها الذين تولوا القضاء المرحوم الشيخ اسد الله صفا قاضي الشرع الجعفري في صيدا المتوفى سنة ١٣٥٤-١٩٣٥ والعلامة السيد احمد علي احمد فحص الذي خلفه في القضاء والعلامة الشيخ رضا الزين نجل العلامة الفقيه المؤلف الشيخ محمد سليمان الزين تلميذ العلامة المحقق الشيخ عبد الله نعمه والأول تخرج في جامعة النجف الأشرف واليوم يتولى رئاسة المحكمة الشرعية الجعفرية في النبطية ومنهم العلامة السيد علي زين عضو محكمة التمييز الجعفرية في بيروت والعالم المرحوم الشيخ توفيق الساروط مدرس بعلبك.

(زبدین) والشیخ امین مزهر (زبدین) والشیخ حسن اسعد غندور (النبطیة) والشیخ امین الحاج اسعد حیدر (زبدین) والشیخ محمد قاسم البیطار والشیخ محمود عباس البیطار (النبطیة) والسید سلیم موسی ابو خدود (النبطیة).

وفي المهاجر وراء البحار فئة صالحة من ابناء الشيعة اسسوا الجمعيات وانشأوا الصحف وجاهدوا في سبيل المبادئ الوطنية وعملوا في حقل العروبة فرفعوا شأن الطائفة وشادوا ذكرها الطيب نذكر منهم الأديب الصحفي الشيخ عبد اللطيف الخشن (سحمر) منشئ جريدة العلم العربي التي تصدر في الأرجنتين (الجمهورية الفضية) وهو من اكبر دعاة النهضة العربية وانصار الجامعة الإسلامية في جنوبي اميركا وقد وقفنا له على مراسلات مع ملوك العرب وامرائها في شأن القضية العربية وابحث تدل على عقل راجح ومعلومات واسعة وغيره صحيحة. ومن المجاهدين في سبيل النهضة العربية من ابناء الشيعة في تلك الأصقاع الشيخ عبد المحمود النجدي (كفررمان) والسيد نعيم قاسم الجزيني (كفرحتى) والسيد توفيق الزين (شحور) والشيخ خليل بزة (بنت جبيل) والشيخ يوسف كمال (دبعال) والسيد رشيد محمد الزيات (صور) والشيخ خليل شومان (جويا) والسيد عبد اللطيف فخري (الزرارية) وغيرهم ممن لم نحضرنا اسماءهم.

ولابد قبل انهاء البحث عن المدرسة الحميدية في النبطية واثرها في المجتمع العاملي ان نذكر على سبيل الاستطراد ان الدراسة والمدارس الدينية قديمة العهد في هذه البلدة تمتد إلى القرن السادس او السابع للهجرة.

روى بعضهم أن فريقاً من الأشراف ممن يمت بنسبة للسادة بني زهرة المعروفين بفقهائ حلب ونقبائهم هاجر إلى جبل عامل لما اشتد الاضطهاد على الشيعيين وزالت دولتهم في الشمال فسكنوا (النبطية) (والسادة آل بدر الدين منهم فيما نقل لنا) وانشأوا فيها مدرسة لتعليم علوم الدين كان موقعها في الحي الشرقي من البلدة بجانب المسجد الصغير الذي لم يزل قائماً إلى اليوم واما المدرسة فلم يبق لها اثر.

والظاهر ان النبطية كانت في عهد اشهر علمائها العلامة الشيخ علي بن يونس النباطي المتوفى في اواخر القرن العاشر. إحدى قواعد العلم الكبرى في جبل عامل يقصدها العلماء من الآفاق للأخذ عن علمائها الأبرار كما هو الحال في قدوم الفيلسوف العلامة الشيخ داود بن عمر الانطاكي إلى النبطية ومقابلته للعلامة الأقدس الشهيد الثاني فيها كما رواه لنا استاذنا الجليل المرحوم السيد محمد علي إبراهيم وكان يسكنها فرع من اسرة الشهيد نفسه كما سيرد عليك وقد بلغت أوج عزاها العلمي في القرن العاشر والحادي عشر للهجرة فأخرجت عدداً وافراً من العلماء ذكر منهم العلامة الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي صاحب كتاب الوسائل المتوفى في سنة ١١٠٤-١٦٩٢ في كتابه (أمل الأمل في علماء جبل عامل) ستة عشر عالماً نذكر اسماءهم بنصها الحرفي على التوالي.

(١) الشيخ أحمد بن الحسين بن محمد بن أحمد بن سليمان العاملي النباطي كان عالماً فاضلاً أديباً وكان رفيق المؤلف في الدرس على الشيخ زين الدين بن محمد بن الحسن بن الشهيد الثاني العاملي توفي هو وأخوه الشيخ سليمان في النبطية في سنة (١٠٧٧-١٦٦٥).

(٢) الشيخ أحمد بن سليمان النباطي يروي عن الشيخ حسن بن الشهيد الثاني اجازة وقرأ عنده وكان عالماً فاضلاً ومحققاً ماهراً وشاعراً أديباً.

(٣) الشيخ أحمد بن موسى العاملي النباطي والد الشيخ علي النباطي كان فاضلاً صالحاً سكن النجف الأشرف ومات بها.

(٤) الشيخ بهاء الدين بن علي العاملي النباطي كان من الفقهاء الصلحاء المعاصرين سكن النجف ومات بالحلة.

(٥) الشيخ حسن بن سليمان بن الحسين بن محمد بن أحمد بن سليمان العاملي النباطي فاضل صالح معاصر.

(٦) الشيخ حسن بن عبد النبي بن علي بن أحمد بن محمد العاملي النباطي كان عالماً فاضلاً منشأ فقيهاً من تلامذة الشيخ حسن بن الشهيد الثاني.

(٧) الشيخ عبد النبي أبو الشيخ حسن المتقدم ذكره وهو أخو الشيخ زين الدين الشهيد الثاني روى عنه الشيخ حسن بن العشرة العاملي الحائني كان عالماً فاضلاً ماهراً أديباً شاعراً منشأ فقيهاً محدثاً صدوقاً جليل القدر قرأ على أبيه وعلى جماعة من العلماء العاملين العاملين منهم الشيخ نعمة الله ابن محمد خاتون والشيخ مفلح الكونيني والشيخ إبراهيم الميسي وغيرهم واستجاز من الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني ومن السيد محمد بن أبي الحسن الموسوي فأجازاه وله كتاب حقيقة الأخبار وجهينة الأخبار في التاريخ وكتاب نظم الجمان في تاريخ الأكابر والأعيان ورسالة سماها فرقد الغرباء وسراج الأدباء ورسالة في الشفاعة ورسالة في النحو وديوان شعر كبير يقارب السبعة آلاف بيت.

(٨) الشيخ حسن الفتوني العاملي النباطي كان فاضلاً صالحاً معاصراً.

(٩) الشيخ حسن بن الفتوني العاملي النباطي كان فاضلاً صالحاً جليل القدر.

(١٠) الشيخ زين العابدين بن محمد بن أحمد بن سليمان العاملي النباطي كان فاضلاً صالحاً عابداً زاهداً ورعاً فقيهاً محققاً جليل القدر قرأ عند الشيخ محمد الحر الجبعي وروى عنه وكان من تلامذة الشيخ حسن بن الشهيد الثاني.

(١١) الشيخ سليمان بن الحسين بن محمد بن أحمد بن سليمان العاملي النباطي كان عالماً فاضلاً صالحاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً وكان هو وأخوه الشيخ أحمد من رفقاء المؤلف في الدرس وقد ماتا في سنة واحد ١٠٧٧-١٦٦٥ كما مر معنا.

(١٢) الشيخ عبد الملك بن علي بن احمد بن محمد العاملي النباطي أخو الشيخ زين الدين الشهيد الثاني كان فاضلاً فقيهاً صالحاً عابداً شاعراً أديباً يروي عن والده^(٣٦) الشيخ حسن بن عبد الملك ويروي هو عن أخيه وعن الشيخ علي بن عبد العالي الميسي سمعته عن جماعة منهم السيد محمد ابن محمد العيناثي ابن بنت الشيخ حسن المذكور.

(١٣) الشيخ علي بن احمد بن موسى العاملي النباطي كان فاضلاً ورعاً عالماً صالحاً مشهوراً جليل القدر سكن النجف ومات بها قرأ على الشيخ محمد بن الشيخ حسن العاملي وله شرح الاثنا عشرية في الصلاة لشيخنا البهائي.

(١٤) الشيخ زين علي بن يونس العاملي النباطي البياضي كان عالماً فاضلاً محققاً مدققاً ثقة متكلماً^(٣٧) شاعراً أديباً متبحراً له كتب منها الصراط المستقيم إلى مستحقي التقدير «كبير حسن» ورسالة سماها الباب المفتوح ما قيل في النفس والروح ورسالة في المنطق سماها اللمعة

(٣٦) كذا نص العبارة في النسخة الخطية التي بين ايدينا ولعل صحتها يروي عنه ولده الشيخ حسن لأن اسم ابيه علي كما ترى.
(٣٧) المتكلم العارف بعلم الكلام والحكمة الالهية ولم يذكر المؤلف مولد ووفاته هذا العالم الجليل والظاهر انه كان حياً في عصر الشهيد الثاني المتوفى في سنة ٩٦٦-١٥٥٨ واخبرني بعض الفضلاء في مكاتب النجف الأشرف مؤلفات عديدة لعلماء جبل عامل ومنها الصراط المستقيم للشيخ علي بن يونس واما كتابه مختصر مجمع البيان فقد رايت نسخة خطية منه عند آل الهمداني بالنبطية الذين اطلق عليهم لقب الصباغ لعهد قريب وهي وقف الشاطري المحرفة عن الاشتري كما سيرد عليك والاشتري نسبة إلى مالك بن الاشر من اصحاب الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وطول هذا الكتاب (٣١) سائمتر وعرضه (٢٢) سائمتر وعدد صفحاته ثمانمائة صفحة مكتوبة بقلم نسخي جميل على ورق متين وقد كتب في آخرها ما يأتي (هذا آخر ما تيسر من مختصر البيان لعلوم القرآن وفرغ منه مؤلفه علي بن يونس البياضي أصلاً النباطي مسكناً الامامي مذهباً والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وكتبه لنفسه فقير عصره وامسه العبد القليل عملاً الكثير زلاً محمد بن حسن بن محمد بن سليمان الاشتري عامله الله بلطفه الخفي بمحمد وآله وصحبه ضحوة النهار التاسع عشر من صفر الخير لسنة مائة والف احسن الله ختامها بخير وسلامه) انتهى. وتحت هذا الكلام صيغة الوقفية ونصها (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواقف على الضمانات العالم بالسرائر والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين الذين جبههم اشرف الذخائر وبعد فإنني وقفت هذا الكتاب لتفسير القرآن على ولدي عبد الله بن محمد بن حسن بن سليمان الشاطري ثم من بعده على ذريته ممن يتصف بالعلم الشريف فإذا انقرضوا والعياذ بالله فعلى القراء المتصفين بقراءة العلم من المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وقفاً صحيحاً شرعياً لا يباع ولا يوهب ولا يتملك وقد اشترطت على من يأتي بعدي ان يصلح ما فسد من هذا الكتاب من حيك واوراق وتجليد قريبة إلى الله وقد كتبت بيدي الفانية وانا الفقير إلى الله) (محمد بن حسن بن محمد بن سليمان الشاطري العاملي)

وتحت الختم ونقشه

(توكلت على خالقي عبده محمد)

شهد بذلك الشيخ علي بن حسين علوية

شهد بذلك الشيخ جابر محمد بن فتح الله

شهد بذلك الشيخ محمد بن علي بن يونس الصيداي

شهد بذلك أخي الشيخ صالح بن حسن بن محمد سليمان الشاطري «في سنة ١١٣٣»

شهد بذلك الشيخ محمد حاطوم بن فتح الله

شهد بذلك الشيخ حسن بن حسين خاتون

ومختصر المختلف ومختصر مجمع البيان ومختصر الصحاح ورسالة في الكلام ورسالة في الإمامة.

١٥) الشيخ محمد بن زين العابدين بن محمد بن أحمد بن سليمان العاملي النباطي كان فاضلاً أديباً شاعراً قرأ على أبيه وعلى والدي وعمي الشيخ محمد الحر.

١٦) الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن موسى العاملي النباطي فاضل صالح معاصر سكن أصفهان إلى الآن «انتهى ما نقلناه عن أمل الأمل».

الاتجاه الجديد في نشر التعليم

تبدلت الأوضاع وتغيرت أساليب التعليم في جبل عامل بعد اغلاق مدارسها القديمة وسرت في البلاد روح التجدد والسير على المنهج الجديد تبعاً لحاجة ومقتضيات العصر وفترت الهممة وقلت الرغبة في نفوس طلاب العلوم الدينية الذين كانوا يرحلون إلى العراق لإكمال علومهم في جامعة النجف الأشرف. وكانت خطة سير الخلف على طريقة السلف واشتغال أبناء العلماء بطلب العلم (منذ نعومة أظفارهم) في المدارس الدينية قاعدة قل من يشذ عنها وقد تبدلت هذه الخطة اليوم وتمرد العدد الأكبر من أبناء العلماء على آبائهم فأحجموا عن الرحيل إلى النجف الأشرف وخلعوا العمامم وبدلوا زياً لبستهم وانتظموا في سلك المدارس العصرية وتقلدوا الوظائف الحكومية وغيرها.

وكان لتغيير أساليب المعيشة والميل إلى الرفاهية اثر ظاهر في هذا التحويل ولم تعد أجسامهم تقوى على احتمال حر العراق والعيش تحت جوه الملهب يضاف إلى ما ذكر قلة موارد الرزق حيث كان الاهلون من قبل يقومون بنفقات المشتغلين بطيبة خاطر حتى أموال الزكوات التي كانت تبذل في هذا السبيل من الحبوب ونحوها تزيد عن الحاجة فلا يجد باذلوها من يقبلها فيطرحونها في المساجد ليأخذ منها ذوو الحاجة ما يبتغونه وهناك أسباب أخرى لا مجال لذكرها ومن الغريب ان هذا الإعراض عن درس علوم الدين وتضاؤل عدد المشتغلين بها سنة بعد سنة لم يفتن لمعالجته وبحث أسبابه ونتائجه وإصلاح نواقصه أساطين علماء الشيعة في الديار العربية في حين ان إخواننا أهل السنة شعروا قبلهم بهذا النقص وشرعوا من زمن بعيد بإصلاح الجامعات الدينية وتحسين أساليب التعليم في الجامع الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في مراكش.

حركة التجدد في النجف الأشرف

جمعية العلماء في جبل عامل

ظهر في النجف الأشرف لعهد قريب شعاع من الأمل وحركة تجدد ورغبة مجدة لتبديل الأوضاع القديمة وإصلاح التعليم قام فئة من الشباب المثقف وذوي الوقوف على الحركة العلمية في العالم تبشر بمستقبل زاهر والأمل معقود أن تعم هذه الفكرة كبار العلماء والمدرسين ومن بيدهم إدارة الجامعة النجفية فيتخذون من تقدم جامع الزيتونة والقرويين والجامعة الأزهرية مثالا يسيرون على منهاجه وخطة مثلى يمشون على غرارها ونسأل الله الهداية.

وساءت الحال في جبل عامل بعد أن أغلقت دور العلوم الدينية وخشي ذوو الغيرة من علماء الشيعة أن يؤدي هذا التحقير إلى الإخلال بالواجب الديني وجهل القواعد وانحلال العقيدة فأسسوا جمعية العلماء العاملة وسنوا لها قانوناً خاصاً طبعوه في كراس ونشروه على الناس وافوا اللجان لجمع المال لتأسيس مدرسة كلية كبرى في إحدى حواضر جبل عامل لتدريس علوم الدين وماتقضي الحاجة من العلوم العصرية وأقبل الناس على هذا المشروع وتبرعوا له بأموال طائلة غير أن هذه الجمعية اصطدمت بعقبات شتى يضيق المقام عن استيعابها فأبطأ سيرها وضعف الأمل بنجاحها بعد أن مضى على تأسيسها ما يقرب من ست سنوات ولم يظهر منها أدنى فائدة وإلى الله مصير الأمور.

الحياة العلمية والمقارنة بين العهدين الأول والثاني

انقضى عصر الإمامين الشهيدين الأول والثاني والمحققين الميسي والكركي ومن تلاهم من علماء اعلام وفقهاء اجلاء، بعد أن شيّدوا المدارس وأسسوا المعاهد ونشروا العلم والثقافة وحفلت مكاتبتهم بالكتب النفيسة وجابوا البلدان والامصار ووقفوا على الحركة العلمية في العالم الاسلامي ودرسوا مناهج التعليم والتدريس درساً دقيقاً وعادوا حافلي الوطاب بالعلم والعرفان. وسرى على خطتهم المثلى ونهجهم السديد تلاميذهم ومريديهم ومن تخرج على ايديهم من العلماء والمشتغلين فتولى الشيخ حسين عبد الصمد الجبعي العاملي الهمداني التدريس في إحدى مدارس حلب ثم ولده العلامة بهاء الدين العاملي الفيلسوف الذي ذاع ذكره وسما قدره فتولى مشيخة الإسلام في اصفهان ورئاسة العلماء في الدولة الصفوية ثم ترك الوظائف ونفض يده من مجّاهر الدنيا فساح في طلب العلم ثلاثين عاما وجاب الاقطار الإسلامية شرقا وغربا ودرس على كبار علماء المذاهب وألف كتبه النافعة الحافلة بالفرائد والفوائد.

ثم ابن اخته العلامة الشيخ محمد بن علي من آل خاتون^(١) الذي رحل إلى طوس والهند وتوطن في حيدر اباد الدكن فتلّقه ملكها السلطان محمد قطب شاه السابع بالترحاب وعرف فضله وأعلى

(١) آل خاتون اسرة عريقة من الاسر العلمية في جبل عامل سكنوا قرية عيناثا أولا ثم انتقلوا إلى جوبا ونبغ منهم علماء اعلام ومنهم العلامة الشيخ محمد علي خاتون رئيس مدرسة جوبا في عهدها الاخير ولقب خاتون اتاهم من جهة الام ومعناه بالفارسية السيدة أو الاميرة وقد ورد في بعض مخطوطات جبل عامل ان احد الملوك المصريين (قيل هو الملك الأفضل ابو الحسين علي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب القصة المعروفة والابيات التي ارسلها إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي) جال في جبل عامل فوصل إلى عيناثا وضرب خيامه في ضاحية القرية وكان سمع يذكر عالم جليل يقيم فيها فارسل يستزيه وقال اني قادم والقادم يزار فارسل اليه الشيخ اننا رويانا (إذا رأيت العلماء على ابواب الملوك والامراء فبتس العلماء وبتس الملوك والامراء وإذا رأيت الملوك والامراء على ابواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء) فمشى اليه الملك بنفسه وزاره في معهد الدرس وسمع درسه وحديثه فأعجب به كثيرا واتصلت بينهما المودة فصاهره الملك وازوجه ابنته (الخاتون) وقد اطلق على اسرتهم هذا اللقب من ذلك العهد. وقضية الأفضل مع الناصر اوردها ابن خلكان وغيره من المؤرخين على الوجه الذي نذكره ملخصا قالوا ان السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب لما دنا أجله قسم الممالك بين اخيه الملك العادل ابي بكر وابنائهم الملك الأفضل علي والملك العزيز عثمان فكانت بلاد الشام من نصيب الملك الأفضل وبعد وفاة ابيه صلاح الدين في سنة (٥٨٩-١١٩٣) اتفق عمه واخوه فاستخلصا منه حكومة الشام ونفياه إلى سمساط (بلدة بين ملاطية وروم قلعة) فتوفي بها في سنة (٥٩٥-١١٩٩) وقبل وفاته كتب إلى الخليفة الناصر في بغداد الابيات المشهورة هي وجوابها.

مقامه وتولى في عهد ولده السلطان عبد الله في سنة ١٠٣٨-١٦٢٨ منصب الصدارة العظمى وامارة المملكة بأسرها وأجاز له الجلوس عند سرير الملك وتولى السفارة بين السلطان والشاه عباس الصفوي أكثر من مرة ولم يزل رسمه باقياً في المتحف البريطاني إلى اليوم وله عدة مؤلفات وقبره في حيدر اباد معروف بزار.

والمقام يضيق عن استيعاب تراجم العلماء والفضلاء الذين هاجروا من جبل عامل ورحلوا في طلب العلم إلى البلدان القاصية وتولوا المناصب الرفيعة وكان لهم حظ وافر في ادارة الممالك وسياسة الشعوب مما نراه مدونا في كتب التراجم والمطولات وقد زاد عدد العلماء في ايامهم فاصبحوا يعدون بالمئات حتى لم تكن تخلو قرية من عالم فاضل اوفقيه ورع. وقد مرينا اجتماع سبعين عالما مجتهدا في تشييع جنازة واحدة في احدى القرى وان عدد العلماء الذين فروا من ظلم الجزار وغدره زاد عن السبعين وارتقى فن التأليف في ايامهم إلى الذروة العليا فقد ورد في روضات الجنات وامل الآمل وغيرها ان مؤلفات الشهيدين الأول والثاني والمحققين الميسي والكركي بلغت المئات عدا مؤلفات آل الأمين في شقرا وآل فضل الله في عيناثا وآل صدر الدين وشرف الدين ونور الدين وآل ابراهيم وآل الحر وآل نعمة وآل شمس الدين وآل يحيى وآل سليمان وآل خاتون وآل مروة وغيرهم ومعظمها مطبوع في الهند وايران والعراق ولم تزل منها أمهات كتب التدريس في كليات النجف والهند وايران وبلاد الروس ويرجع اليها تسعون مليوناً من المسلمين الشيعة في مختلف الامصار الإسلامية.

وتلا هذا العصر عصر آخر نبغ فيه علماء افاضل وفقهاء اجلاء لم يكونوا أقل علما وأدنى منزلة من علماء العهد الأول فقد قاموا من تلك النكبة المريعة (نكبة الجزار) ينفضون غبار الموت وشرعوا ببناء ما تهدم من المدارس وتجديد مدارس من بيوت العلم وتنظيم مجالس التدريس فاعادوا للعلم سيرته الاولى وساروا على خطة من سلف في نشره وتعميم فوائده وتخرج على ايديهم فريق كبير من أهل العلم والأدب والشعراء الفحول واللغويين الأفذاذ ممن يعد في الرعيل الأول.

غير أن خطاهم كانت قصيرة في الرحلة إلى الآفاق وارتباد مناهل العلم في مراكز التدريس الكثيرة في العالم الإسلامي فلم نسمع عن أحد منهم انه ام دمشق او حلب او مصر أو غيرها من بلدان المسلمين لغرض علمي أو درس مناهج التجدد واصلاح التعليم في كليات اخوانهم أهل السنة فأخذ عنهم أو حصل على اجازة منهم كما كانت الحال في عهد اسلافهم ممن أتينا على سيرته من علماء العهد الأول.

ومن درس الدواعي والعوامل التي ادت إلى هذا الجمود يجد من أهم اسبابهم الخطط السياسية التي سرى عليها الأتراك (من عهد سليم الأول) اذ كان من اقاصي امانيتهم اضعاف العرب وإذلالهم ومحو حضارتهم والاستئثار بمقدرات المسلمين وبذر الخلاف بين الطوائف والعناصر واثارة النزاع والتعصب بين أهل المذاهب وتدمير معاهد العلم ودور الثقافة واهمال التعليم حتى البسيط اهمالا فاضحا فانتشر الجهل وعمت الامية وتداعت المدارس العلمية التي كانت تعد بالمئات في المدن السورية للخراب ونقص عددها نقصا فاحشا.

وكان من سوء سياسة الترك وفساد إدارتهم وسوء حظ الأمة العربية أن فريقاً من قصيري النظر ممن ينتسب إلى العلم جاراهم على هواهم وسرى على خطتهم الخرقاء فاصدروا الفتاوى بتكفير بعض الفرق الإسلامية واستحلال دمائهم وأموالهم ولا ذنب لهم سوى انتسابهم لمذهب الأئمة من أهل البيت النبوي المطهر فكانت النتيجة أن بعدت الشقة بين أهل السنة والشيعة واستحكم الخلاف فضاعت المصلحة العامة ورسخت قدم الدخلاء والمتغلبين.

ان في سيرة الإمامين الشهيدين ومن تلاهم من عظماء علماء الشيعة ورحلتهم في سبيل العلم والإرشاد إلى البلاد النائية وامتزاجهم بالعلماء والمدرسين في دمشق ومصر واخذهم اجازاتهم واستحصال بعضهم على برآت سلطانية لتعليم علوم الدين والفقه والفتيا على المذاهب الخمسة لا كبر دليل على عظمة تلك العقول التي انارها الله بنور العلم والتي لم يكن هدفها سوى الحرص على الوحدة الإسلامية ومحو التعصب وتطهير النفوس من ادران الجهل. وسلمت تلك النهضة من دسائس الترك التي اخترتها مائة عام إلى الوراء وسارت سيرها الطبيعي لنفذت إلى المقصود وبلغت الغاية ولما وصلت البلاد العربية إلى الحالة المؤسفة التي نراها اليوم وكان تغيير وجه التاريخ في الاقطار العربية لاسيما في مصر وسوريا والعراق.

وقد ادرك في هذا العهد فريق كبير من مفكري المسلمين وعلمائهم من اهل السنة والشيعة في الاقطار الثلاثة الأنفة الذكر مبلغ الخطأ الذي ارتكبه اسلافهم بدسائس الترك وما جره استسلامهم لهم من الخذلان على الاسلام والعرب وشعروا بالخطر الذي يهدد الأمة بالاستعباد والفساد فبدأوا يعملون بجهد ونشاط واخلاص للتقريب بين عناصر المسلمين وطوائفهم ومحو الخلاف المذهبي الذي جسمته الدعاية السياسية ولم يكن من جوهر الدين في شيء.

ولا يسع المقام استيفاء اسماء العلماء الذين ظهروا في جبل عامل في عهده الأول ومقدار مالهم من التأليف والأثار العلمية مما هو مدون في الموسوعات غير انا نكتفي بسرد اسماء اشهرهم ذكرا واغزرهم علما واوفرهم معرفة وفضلا لاسيما الذين كثرت تأليفهم ورحلوا إلى الاقطار القاصية ونالوا المناصب الرفيعة.

فمنهم أبناء الشهيد الأول الشيخ رضي الدين ابو طالب محمد والشيخ ضياء الدين ابو القاسم علي والمنصور الشيخ حسن وامهم الفاضلة ام علي وكان الشهيد يثني عليها ويأمر النساء بالرجوع اليها واختهم السيدة ام الحسن المعروفة بست المشايخ (وقد مر ذكرها) خمسة من اهل العلم والفضل والورع والتقوى يضمم بيت واحد انه لدليل ناصع على ما لرافع بنيانه العظيم من فضل واسع وعلم وفير.

ومنهم الشيخ تقي الدين ابراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح بن اسماعيل العاملي الحارثي الكفعمي مولدا اللويزي محتدا الجبعي أبا الحارثي نسبا والتقي لقباً الإمامي مذهباً هكذا انتسب في آخر كتابه المصباح وقد ترجمه صاحب امل الأمل والشيخ يوسف البحراني في كتابه لؤلؤة البحرين والشيخ احمد المقري الاندلسي في نفع الطيب وكلهم اثنوا على علمه وادبه وهو تلميذ

الشيخ علي بن يونس العاملي النباطي الذي سبق ذكره والشيخ شمس الدين محمد بن زين الدين علي بن شمال العاملي المشغري وكانت قراءته على الثاني في سنة ٨٤٨-١٤٤٤ والكفعمي نسبة إلى كفعم قرية خربة بالقرب من قرية جبشيت على نحو ثلاثة أميال من النبطية غرباً وقبره معروف فيها واللوية قرية من أعمال جزين جنوبي جبع على مقربة من ينبوع نهر الزهراني وله شعر رائق ومؤلفات ورسائل أشهرها المصباح المعروف بمصباح الكفعمي ورسالة اسمائها محاسبة النفس اللوامة.

ومنهم الشيخ عز الدين الحسين بن عبد الصمد بن محمد الحارثي الهمداني الجبعي والد العلامة البهائي وهو تلميذ الشهيد الثاني وقد مر ذكره اقام مدة في بعلبك وبها ولد ولده البهائي وتولى التدريس في إحدى مدارس حلب ببراءة سلطانيه (كما تقدم) ثم سافر إلى خراسان واطام مدة في هرات وكان شيخ الاسلام بها ثم انتقل إلى البحرين وفيها توفي في سنة ٩٨٤-١٥٧٦ وعمره ٦٦ سنة وله مؤلفات في مختلف العلوم وديوان شعر وقد اجازة شيخه الشهيد الثاني اجازة عامة.

ومنهم الشيخ محمد بن العوذى الجزيني وكان مرافقاً للشهيد الثاني وتلميذه وقرأ معه في دمشق الصحيحين على الشيخ شمس الدين طولون واجازة بروايتهما وصحبه إلى مصر والعراق وقسطنطينية وبعلبك وكتب رسالة خاصة في ترجمة الشهيد ورثاه بقصيدة طويلة.

ومنهم الشيخ جمال الدين ابو المنصور الحسن بن زين الدين الشهيد له التصانيف الجليلة الجامعة إلى غزارة العلم بلاغة العبارة منها معالم الدين وملاذ المجتهدين في علم اصول الفقه وهو كتاب يدرس إلى اليوم في مدارس الشيعة وقد ترجمه المحبي والخفاجي وابن معصوم وغيرهم وكلهم اثنوا عليه وذكروا علمه وادبه وهو من شعراء الدرجة الأولى في عصره توفي في سنة (١٠١١-١٦٠٢) في جبع وقبره معروف فيها إلى اليوم.

ومنهم الشيخ محمد بن الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني العاملي من اكابر علماء عصره المحققين له مصنفات جيدة في فنون العلم وشعر ونثر رحل طلب العلم إلى دمشق واختلط بفضلائها وقرأ عندهم في علوم شتى ومن جملة شيوخه الشيخ شرف الدين المترجم في خلاصة الاثر المتوفى في سنة ١٠٣٨-١٦٢٨ وكان رفيقه في الدرس الشيخ محمد بن الحرفوشي وروى عنه ولده الشيخ علي في كتابه الدر المنثور رد صلة الامير يونس الحرفوشي صاحب بعلبك وهي صلة لا يستهان بها تورعاً كما رفض التماس بعض ملوك عصره حضوره اليهم للاستفادة من علمه تجنباً للظهور وابتعاداً عن رجال الدنيا رحل إلى العراق ثم إلى مكة فأقام بها مجاوراً خائفاً من حساده إلى أن توفي في سنة (١٠٣٠-١٦٢٠).

ومنهم ولده الشيخ زين الدين بن محمد بن الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني العاملي. ذكره غير واحد من رجال المعاجم كالمحبي وابن معصوم صاحب امل الآمل والبحراني واخوه في الدر المنثور وكلهم اظهروا علمه وادبه رحل إلى إيران وقرأ على العلامة البهائي ثم قصد إلى مكة وتوفي فيها في سنة ١٠٦٤-١٦٥٣ وهو شاعر من الطبقة الأولى في عصره.

ومنهم الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني المار ذكره ولد في بعلبك في سنة ٩٥٣-١٥٤٦ وهو من اقطاب العلم ورجال الفنون وفلاسفة العصر ساح في طلب العلم

ثلاثين عاما وتوفي في اصفهان في سنة ١٥٣١-١٦٢١ ودفن في المشهد الرضوي وهو صاحب كتاب الكشكول والمخلة والزبدة في الاصول والخلاصة في الحساب المترجمة إلى اللغات الأوروبية وله مؤلفات كثيرة عد منها صاحب امل الآمل نحو خمسين كتابا ورسالة بالعربية والفارسية.

ومنهم الشيخ حسن بن علي بن حسن بن احمد بن محمود العاملي الكونيني المعروف بالحائيني نسبة إلى كونين وحانين وهما قريتان متجاورتان من قرى جبل عامل الجنوبية وعلى ميلين أو ثلاثة اميال من تبين كان ابوه الشيخ علي عالما من اهل المدينة المنورة انتقل إلى جبل عامل واتخذ وطنه له ترجمه المحبي واثنى عليه وذكره صاحب امل الآمل وله مؤلفات ادبية منها كتاب حقيبة الاخيار وجهينة الاخبار وله ديوان شعر توفي في سنة ١٠٣٥-١٦٢٥.

ومنهم السيد جمال بن السيد نور الدين علي بن علي بن أبي الحسين الموسوي العاملي الجبعي ذكره صاحب امل الآمل وقال في حقه عالم فاضل محقق مدقق ماهر اديب شاعر كان شريكنا في الدرس عند جماعة من مشايخنا وقرأ في دمشق على العلامة السيد محمد بن حمزة نقيب الأشراف وسافر إلى مكة وجاور بها ثم إلى مشهد الرضا (ع) ثم إلى حيدر آباد ليصبح مرجع فضلائها واكابرها وله شعر كثير وحواشي وفوائد كثيرة واخوه السيد علي من الشعراء أقام بمكة وعنه اخذ المحبي ترجمة اخيه وقال انه توفي في مكة مجاورا في سنة ١٠٩٨-١٦٨٦.

ومنهم السيد حبيب الله بن الحسين بن الحسن الحيني الموسوي العاملي الكركي الملقب بمرزا حبيب كان عالما جليل القدر عظيم الشأن كثير العلم والعمل سافر إلى اصفهان وتقرب عند الملوك حتى جعلوه صدر العلماء والأمراء وولده السيد ميرزا علي رضا كان محققا مدققا متكلم عظيم المقام تولى مشيخة الإسلام في اصفهان وتوفي في سنة ١٠٥١-١٦٤١.

ومنهم السيد حسين بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي الحسن العاملي الجبعي كان عالما جليل القدر والشان قرأ على ابيه صاحب المدارك وعلى الشيخ بهاء الدين وغيرهما وسافر إلى خراسان وسكن بها وتولى مشيخة الإسلام بالمشهد المقدس الرضوي التدريس في الحضرة الشريفة تحت القبة الكبيرة الشرقية. ومنهم السيد ميرزا محمد معصوم بن ميرزا مهدي بن ميرزا حبيب الله الموسوي العاملي الكركي كان فاضلا عالما محققا وهو حفيد السيد حبيب الله الأنف الذكر وتولى مشيخة الإسلام في اصفهان وتوفي في سنة ١٠٩٥-١٦٨٣.

ومنهم السيد محمد مهدي بن ميرزا حبيب الله الموسوي الكركي كان عالما فاضلا جليل القدر عظيم الشأن عليه اعتماد الدولة في اصفهان.

ومنهم الشيخ محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين الحر العاملي المشغري الإمام المحدث الكبير صاحب كتاب امل الآمل والوسائل في الحديث وغيره من المؤلفات الكثيرة جلها في علم الحديث وله شعر متوسط ترجمه ابن معصوم والبحراني والمحبى ترجمة طويلة وذكره الشيخ رحمه الله الهندي في كتابه اظهار الحق واستشهد ببعض آرائه سافر إلى إيران واقام في طوس وبها توفي في سنة ١١٠٤-١٦٩٢.

ومنهم الشيخ محمد بن خبير العاملي العنقاني نسبة إلى عنقانا (قرية بالقرب من جب) له مختصر تاريخ جبل عامل من سنة ١٠٤٣ إلى ١١٥٣.

ومنهم العلامة الشيخ محمد بن علي الخاتوني ابن اخت البهائي وهو وزير السلطان عبد الله قطب شاه سلطان حيدر آباد الدكن وقد مر ذكره.

ومنهم الشيخ محمد بن احمد المعروف بالحريري الحرفوشي العاملي اللغوي النحوي اتصل بالسلطان عباس الصفوي شاه ايران وتقلد رئاسة العلماء وقد نسبته معظم من ترجمه إلى عامل كما نسبوا العلماء الكركيين والبلعكيين وهي نسبة ادبية ومذهبية لا جغرافية لأن الكرك وبلعك لم تكونا من اعمال عاملة وانما كانتا متصلتان ببلاد عاملة في الادب والمذهب والسياسة وقد توفي في سنة ١٠٥٩-١٦٤٩.

ومنهم الشيخ علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين الشهيد العاملي الاصفهاني كتاب الدر المنثور من المأثور وغير المأثور وغيره من الكتب الممتعة اودع في ذلك الكتاب تراجم آبائه مفصلة وترجمة له مطولة وله مؤلفات كثيرة وقد كتب بخط يده سبعين كتابا ولد في سنة ١٠١٣-١٦٠٤ وتوفي في سنة ١١٠٣-١٦٩١.

ومنهم السيد ابو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي مؤسس مدرسة شقراء التي مر ذكرها وهو من كبار العلماء واهل الفضل توفي في سنة ١١٩٤-١٧٨٠ وتخرج على يده كثيرون من علماء جبل عامل وشعرائه.

ومنهم العلامة الجليل الشيخ علي بن يونس النباطي الذي اتينا على ذكره في عداد العلماء الاجلاء الذين نبغوا في النبطية في الفصل الذي قبل هذا.

هذا ما وقفنا عليه من سيرة مشاهير علماء جبل عامل في العهد الاول وقد تقدم عن مشاهيرهم في العهد الثاني في فصل خاص عدا عن المئات من الأدباء والشعراء.



قائد عاملي بين أتباعه - القرن ١٩ م